الرسالة

(أفسس ٥: ٨–١٩)

يا إخوةُ اسلُكوا كأولادِ للنور* (فإنَّ ثمرَ الروحِ هو في كلِّ صلاحٍ وبرٍّ وحقٍّ)* مختبرينَ ما هو مَرضِيٌّ لدى الرب* ولا تشتركوا في أعمالِ الظلمةِ غيرِ المثمرةِ بل بالأحرى وبِّخوا عليها* فإنَّ الأفعالَ التي يفعلونَها سِرًّا يقبُح ذكرُها أيضاً* لكنَّ كلَّ ما يُوبَّخُ عليهِ يُعلَنُ بالنور* فإنَّ كلَّ ما يُعلنُ هو نورٌ* ولذلك يقولُ استيقِظ أيُّها النائِمُ وقُمْ من بينِ الأمواتِ فيُضيءَ لك المسيح* فانظروا إذاً أن تسلُكوا بحذرٍ لا كجهلاءَ بل كحكماءَ* مفتدينَ الوقتَ فإنَّ الأيامَ شريرةٌ* فلذلك لا تكونوا أغبياءَ بل افهموا ما مشيئةُ الرب* ولا تسكروا بالخمرِ التي فيها الدعارةُ بل امتلئوا بالروح* مكلِّمينَ بعضكم بعضاً بمزاميرَ وتسابيحَ وأغانِّي روحيَّةٍ مرنِّمين ومرتِّلينَ في قلوبِكم للرب.

القديس يوحنا الدمشقي

في الرابع من كانون الأول تُعَيِّد كنيستنا المقدَّسة للقديس يوحنَّا الدمشقي الذي نسك في دير القديس سابا في فلسطين، وقد برز في القرن الثامن للميلاد لاهوتياً عالِماً ومُدافعاً مُعتَرِفاً عن العقائد الإلهية، في وجه كثير من الهرطقات. عَرَفته الكنيسة الأرثوذكسية مؤلِّفاً ليتورجياً غزير الإنتاج ومبدعاً في نظم التسابيح ووصفته بـ «البلبل الغرِّيد الشجي النغم، الذي أطرَبَ كنيسة المسيح وأبهَجَها بأناشيده الحَسَنة الإيقاع»، وأيضاً بـ «زعيم ناظمي التسابيح». من تسابيحه المألوفة والمُحَبَّبة إلينا كثيراً تعظيمة «إن البرايا بأسرها تفرح بك».

إلى ذلك، كُثُرٌ من الباحثين المتخصِّصين بالقديس يوحنا الدمشقي يَصِفونه بالمعلِّم ذي الطابع «المَوسوعي» (نسبة إلى الموسوعة) لشموليَّة معرفته واتِّساعها وتنوُّعها، لا في المجالات اللاهوتية والكنسية وحسب بل أيضاً في مُجمَل العلوم الدنيوية لزمانه.

وُلد القديس يوحنا في دمشق سنة ٦٧٦ ميلادية، واسمه في العالم منصور بن سرجون، لعائلة أرثوذكسية مؤمنة وذات مكانة رفيعة في المجتمع وفي الأوساط الحاكمة أيضاً. والده كان وكيل مالية الخليفة الأموي عبد الملك، وقَبْل الوالد كان الجدُّ مُديراً لشؤون الضرائب الدمشقية زمان حُكم الأمبراطور البيزنطي هرقل. في صباه نال قديسنا أرفع التعليم الذي كان متوفِّراً في عصره، وفي العشرينات من عمره كان قد صار مُتَبَحِّراً في علوم الفلسفة والخطابة، والرياضيات والهندسة والفَلَك، واللغات العربية والسريانية واليونانية، والموسيقى واللاهوت ومبادئ الإسلام التقليدي. انضمَّ إلى البلاط الأموي، إثر وفاة والده، وما لبث أن شغل منصب كبير مستشاري الخليفة الأموي عبد الملك لبضع سنوات، ليؤثر بعدها ترك العالم إلى الرهبنة مُنضماً إلى شقيقه الأصغر في دير القديس سابا غَربي أورشليم. هناك انقطع إلى النُسك والجهاد الروحي، والتأليف، حتى رقاده سنة ٧٤٩.

من أبرَز ما ألَّف القديس يوحنا ثلاثية عقائدية متكاملة سمّاها «ينبوع الحكمة»، أتت «موسوعية» لا

العدد ٢٠١٥/٤٨

الأحد ٢٩ تشرين الثاني

تذكار القديسَيْن الشهيدَيْن

بارامونوس وفيلومانوس

اللحن الأول

إنجيل السَحَر الرابع

في الشكل الأدبي والبنية العلمية وحسب بل وأساساً في منهجية وشمولية محتواها. يقول، في آخر الجزء الأول، انه لم يهدف إلى تقديم آرائه وخلاصاته الشخصية أو أي لاهوت منفرد، بل أن يجمع في مؤلَّف واحد، وبشكل منهجي مُتكامِل، خلاصة الفكر العقائدي الآبائي السابق له. في الجزء الأول، وعنوانه «فصول فلسفية»، يُفَنِّد القديس يوحنا، بأسلوب جدلي، أبرز التحديدات الفلسفية وعلم المنطق من وجهة نظر الفلاسفة أولاً لا سيما أرسطو، ثم من وجهة نظر آباء الكنيسة. كذلك يشرح الدور الذي لعبه الفكر الفلسفي في بلورة بعض المفاهيم اللاهوتية وكيف استوعبت علومُ اللاهوت الأفكارَ الفلسفية فاصلةً بين الصالح منها والضارّ.

الجزء الثاني، واسمه «حول الهرطقات»، جدَّد فيه القديس يوحنا مؤلَّفاً سابقاً كان يعرض لثمانين من البدع والهرطقات وسائر الأيديولوجيات الدينية الأُخرى. لَم يُعِد صياغة مضمون هذا الكتاب بل أضاف إليه عشرين بدعة وهرطقة جديدة، وأعاد ترتيب منهجيته لتتناسب مع منهجية الجزء السابق فيتكامل الجزءان في خط بياني واحد.

دارسو لاهوت القديس يوحنا الدمشقي يُجمعون على أن هذين الكتابين على أهمية ما يحتويان، ليسا إلا تمهيداً للكتاب الثالث «العَرض الدقيق للإيمان الأرثوذكسي»، المعروف عندنا باسم «المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي». لَعلَّه، بلا مُغالاة، أعظَمَ ما كَتَب القديس يوحنا الدمشقي، وأحد أبرز وأشمل مؤلَّفات الأدب المسيحي حتى أيامنا. وسُرعان ما صار هذا الكتاب «مَرجعاً لدارسي اللاهوت العقائدي، لا الشرقيين وحسب بل الغربيين أيضاً، وما زال. في هذا الكتاب أيضاً لم ينسب القديس يوحنا لنفسه أفكاراً جديدة عن الحقائق الإلهية، بل جمَّع خلاصات الفكر العقائدي الآبائي التي كانت مُبَعثَرة هنا وهناك، في تسلسل فكري واحد متكامل. ولكي يصل إلى هذا، غاص قديسنا كثيراً في فكر كبار آبائنا القديسين، مثل غريغوريوس اللاهوتي وباسيليوس الكبير وكيرللس الإسكندري ولاون الكبير وغريغوريوس النيصصي وأثناسيوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم، على تنوُّع مدارسهم اللاهوتية، مُستَخلصاً منهم الإعلان الإلهي الواحد كما كشفه الله لهم، لا سيما في موضوعات وجود الله والجوهر الإلهي والطبيعة الإلهية والثالوث الأقدس، التي تُشَكل القسم الأول من الكتاب. في القسم الثاني يتناول القديس العقائد المختصة بالخلق والعالم المخلوق، مُضَمِّنا هذا القسم عَرضاً للخليقة عموماً بعالَميها المنظور وغير المنظور. يشمل هذا شرحاً وافياً عن الملائكة ومراتبها وطبيعتها، الصالح منها والساقط، وعن الفردوس، وعن الكون والأرض والطبيعة، وعن الإنسان نفساً وجسداً. فيما بعد ينتقل القديس إلى البحث في سرِّ التدبير الإلهي فيشرح العقائد المختصة بشخص ربنا يسوع المسيح وطبيعتيه، فاضحاً بطريقه ضلالة «الطبيعة الواحدة» وغيرها من الضلالات في ما يختصُّ بربنا يسوع المسيح. ومن «سرّ التدبير الإلهي»، ينتقل القديس في الجزء الرابع إلى الثمار التي أعطانا إياها هذا التدبير المُبارَك. أي ينتقل من الشرح النظري للسر إلى تفصيل مفاعيله عملياً، بما فيها حياتنا في الكنيسة والأسرار المُقَدَّسة، وصولاً إلى كل ما يختصُّ

الإنجيل

(لوقا ١٨: ١٨–٢٧)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ مجرِّباً له وقائلاً أيُّها المعلّمُ الصالحُ ماذا أعمَلُ لأرِثَ الحياةَ الأبديَّة* فقال له يسوعُ لماذا تدعوني صالحاً وما صالحٌ إلاَّ واحدٌ وهو الله* إنَّك تعرِفُ الوصايا لا تزنِ. لا تقتُلْ. لا تسرِقْ. لا تشهَدْ بالزور. أكْرِمْ أباك وأمَّك* فقال كلُّ هذا قد حفِظْتُهُ منذ صبائي* فلمَّا سمِعَ يسوعُ ذلك قال له واحدةٌ تَعوزُك بعدُ. بِعْ كلَّ شيءٍ لك ووزِّعهُ على المساكين فيكونَ لك كنزٌ في السماءِ وتعالَ اتبعْني* فلمَّا سمعَ ذلك حزِنَ لأنَّه كان غنيًّا جدًّا* فلمَّا رآهُ يسوعُ قد حزِنَ قال ما أعْسَرَ على ذوي الأموالِ أن يدخلوا ملكوتَ الله* إنَّهُ لأسهلُ أن يدخُلَ الجَمَلُ في ثَقبِ الإبرَةِ من أن يدخُلَ غنيٌّ ملكوتَ الله* فقال السامِعون فمن يستطيعُ إذاً أن يخلُصَ* فقال ما لا يُستطاعُ عند الناسِ مُستطاعٌ عندَ اللهِ.

تأمل

كيف لي أن أصف أهواء الطّمّاع؟ أيّ شيء ملوَّث أكثر من يديه؟ أيّ شيء أكثر شراهةً ووقاحةً من عينيه؟ لا يرى الناسَ أناساً، ولا السماءَ سماءً، ولا شيء من الأمور الدّنيويّة على حقيقتها، كلّ شيء يراه كالمال ويقيسه بالمال. إنّ البشر الحقيقيّين يرون الفقراء ضُعفاء فيُشفقون عليهم، بينما الطّمّاعون يرون الفقراء فيصبحون كالوحوش. البشر الحقيقيّون لا ينظرون إلى المقتنيات الغريبة بل هم يعطون أيضاً مِمَّا لديهم لِمَن هم بحاجة، بينما الطمّاعون لا يهدأون إلى أن يسلبوا معيشة الآخرين ويستولوا عليها. البشر الحقيقيّون لا يحتملون رؤية قريبهم عرياناً، بينما الطمّاعون لا يهدأ لهم بال إن لم يجرّدوهم من ثيابهم كلّها. لذلك يستطيع المرء أن يقول إنّهم ليسوا فقط وحوشاً، بل أسوأ من ذلك بكثير. كما ترون، عندما تشبع الوحوش تترك فرائسها، أمّا الطمّاعون فلا يعرفون الشّبع، إضافة إلى أنّ الوحوش هي بطبيعتها بالقيامة وباليوم الأخير.

على مدى كتابه، يبني القديس يوحنا قارئه مدماكاً مدماكاً في الإيمان، مُبَيِّناً الحقائق الإلهية بدون تعقيد وداحضاً الضلالات بدون مُهادنة، بقوة اللاهوتي العلّامة وبحرارة الناسك العاشق لله، «مملوءاً حكمة إلهية وعالمية» كما يرد في طروبارية عيده.

تربية الأولاد عند البار بورفيريوس

تعيّد كنيستنا المقدّسة في الثاني من كانون الأول لأبينا البار بورفيريوس الرائي الذي نسك في الجبل المقدس منذ صغره وقد أغدق الله عليه نِعَماً كثيرة فروى بكلماته عطشنا للكلمة الروحيّة. وقد منحه الله أيضاً أن يرى ويقرأ أفكار الناس وأعماقهم، وغالباً ما كان يسارع إلى حل مشاكل تحصل في أماكن بعيدة بطريقة عجائبية. وقد كان يقدّم كل عمل يقوم به إلى الله معتبراً نفسه مجرد وسيط لا أهمية له، وأداة بيد الله.

كان للكل الأب والصديق والملاك الحارس وطبيب النفوس والأجساد أحياناً. لم يكن يزدري بأحد بل احترم الجميع. وفي بعض الأحيان كان يصر على نصيحته لكنه لم يكن يفرضها، مريداً أن يتصرّف الإنسان بحرية، مختاراً العمل بنصائح القديس بملء إرادته.

في عالمنا اليوم الذي نشهد فيه تردياً في تصرفات الأولاد مع أوليائهم من جهة، والتفكك الأسري الذي يضرب مجتمعنا من جهة أخرى، لا بد لنا، ومن أجل إعادة بناء العائلة المسيحية، أن نحتكم لنصائح أبينا البار بورفيريوس حول تربية الأولاد.

بالنسبة لأبينا البار، تبدأ نشأة الطفل منذ اللحظة الأولى للحبل به.، الجنين يسمع ويشعر وهو في أحشاء أمه، ويفهم حركاتها ومشاعرها أيضاً بالرغم من عدم نمو ذهنه، لذلك ينصح الأب بورفيريوس الأم أن تصلّي كثيراً خلال فترة حملها وأن تحب جنينها وتقرأ المزامير الروحية والتراتيل والطروباريات، فينمو عندها الولد منذ لحظة تكوّنه على أساسات مقدسة.

إن ما يجعل الأولاد صالحين هو حياة الوالدين في المنزل. من هنا يقول الأب بورفيريوس أنه ينبغي على الآباء أن يعطوا ذواتهم إلى محبة الله وأن يتقرّبوا من أولادهم بوداعة وصبر ومحبة. الأهل هم السبب في سوء تصرفات الأولاد. لا النصائح ولا القساوة ولا النظام ينفع الأولاد أو يخلّصهم. الأمر الأهم هو أن يعيش الأهل حياة مقدسة وأن يتكلّموا بالمحبة. المحبة والتعاطف والتفاهم الجيد بين الأبوين هي التي تمنح الأولاد الأمان. سوء تصرفات الأهل يؤدي إلى ضياع الأولاد فلا يتقدّمون في الحياة وينمون بشكل سيء ما يؤدي إلى انهيارهم. بسبب تصرفات الأهل، تتكوَّن لدى الأولاد بحسب القديس بورفيريوس حالة نفسية تترك آثارها داخلهم طيلة حياتهم وتؤثر سلباً على تصرفاتهم مع الآخرين، وهذا ما يظهر مباشرة وبوضوح في مسالك حياتهم اليومية. يشدِّد قديسنا على أن الأولاد يريدون أشخاصاً يتمتعون بمحبة كبيرة، لا يُرهبونهم في التعليم والوعظ بل يقدّمون لهم قدوة صالحة وصلاة. يوصي البار الأهل قائلاً: «صلّوا أيها الآباء بصمت وبأيدٍ مرفوعة نحو المسيح، واحتضنوا أولادكم سرياً».

من جهة أخرى، الإفراط في الرعاية أي الاهتمام الزائد بالأولاد

واضطراب الأهل و«وسواسهم» يترك الأولاد غير ناضجين، لذلك ينصح القديس أن يترك الأهل أبناءهم ليهتموا بأنفسهم بتقدّمهم ونجاحهم. كثرة الضغط والمبالغة في الاعتناء لا يأتيان بثمر للأولاد. فالولد يتقدّم عندما يكون حراً. لذا الحل الوحيد بالنسبة إلى الأب بورفيريوس هو أن يحتضن الأهلُ أولادَهم بالصلاة الحارّة والمستمرة سرياً فينعكس ذلك على الولد ويشعر بالأمان والثقة. القلق وتوجيه النصائح والكلام الكثير تدفع الولد إلى الإمتناع عن السمع فتصبح الكلمات دون تأثير أما الصلاة فتذهب إلى القلب. الحاجة هي «إلى صلاة مع إيمان دون قلق، لكن أيضاً مع المثال الصالح».

أن تكون محبة الأهل للأولاد محبة مسيحية مقدسة لا محبة بشرية عاطفية هي الركيزة الأساسية لتربية سليمة. قداسة الأهل تخلّص الأولاد يقول الأب بورفيريوس.

الأمر الآخر الذي يشدِّد عليه الأب بورفيريوس في حديثه عن تربية الأولاد هو طلب المعونة من الله. الدواء الفعّال لتقدّم الأولاد هو التواضع. يشدِّد الأب بورفيريوس على ضرورة تعليمهم طلب المعونة من الله في كل الأمور.

ان كثرة المديح تؤذي الأولاد إذ لا تهيّء الأولاد لمواجهة أية صعوبة في الحياة، بل تجعل الولد ينطوي على نفسه. يشدّد قديسنا على أن المديح المتواصل يوصل أولادنا إلى الغرور وحب المجد الفارغ. الله لا يريد الكذب بل يريد الحقيقة. كثرة المديح تزرع في نفس الولد الغرور والأنانية وهذا ما لا نريده. كنيستنا تريد أن يتعلّم الأولاد الحقيقة منذ الصغر. كذلك على الأهل أن يقولوا الحقيقة لأبنائهم وأن يعلّموا أولادهم ذلك أيضاً. إن التوبيخ ضروري في بعض الأحيان كي يعلم الولد أن ما فعله ليس صحيحاً ومن هنا قول سليمان الحكيم «مَن وفّر عصاه فهو يبغض ابنه والذي يحبّه يبتكر إلى تأديبه» (أمثال ١٣: ٢٤).

أهّلنا الرب الإله أن نكون قدوة صالحة لنرعى تلك العطية القيّمة التي وضعها بين أيدينا ونقدّمها في اليوم الأخير هاتفين نحوه «هأنذا والأولاد الذين أعطانيهم الله». لنصلّ الصلاة التي علّمنا إياها قديسنا قائلين: «أيها الرب يسوع المسيح أنر أولادنا، إننا نسلّمهم إليك، أنت أعطيتَهم لنا، لكننا ضعفاء لا نستطيع أن ندبِّرهم لأجل ذلك نتوسل إليك أن تنيرهم، آمين».

تذكار البار بورفيريوس الرائي

بمناسبة تذكار أبينا البار بورفيريوس الرائي تُقام خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الثلاثاء ١ كانون الأول في كنيسة القديس نيقولاوس.

كما تُقام خدمة السَحَر عند التاسعة والقداس الإلهي عند العاشرة من صباح الأربعاء ٢ كانون الأول في كنيسة أبوينا البارين أنطونيوس الكبير وبوفيريوس الرائي في دار المطرانية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

متوحّشة، بينما يحوّل الطمّاعون طبيعتهم بإرادتهم من أليفة إلى متوحّشة. أفواههم تنفث سمًّا مثل أفواه الأفاعي السّامّة، وأيديهم لا تتعب من الإساءة إلى الآخرين. أمّا بالنسبة إلى ذهنهم، فإن استطاع أحد أن يفحصه، لأسماهم ليس فقط وحوشاً بل شياطين أيضاً، لأنهم لا يُضمرون في داخلهم سوى القسوة والشرّ لكلّ أخٍ لهم في الإنسانيّة. حتى الشياطين لا تستطيع أبداً أن تؤذي إنساناً من دون إرادته ومساهمته، بينما الطمّاعون يؤذون قريبهم دائماً من دون إرادته ورغماً عنه، إنّهم يضحّون بكلّ شيء حتى بأنفسهم أيضاً على مذبح الرّبح. لا يفكّرون بشيءٍ، ولا يهمّهم شيء آخر سوى المال. لا يرغبون بالملكوت السماوي ولا يخجلون من الناس ولا يحترمون الله. يخالفون القوانين، ويسخرون من الأمانة، يحتقرون الإنجيل، ويعتبرون الحياة بعد الموت غير موجودة.

القديس يوحنا الذهبي الفم